> « لأنفس من درر البحار ما يجده الرجل من راحة بال، وما ينعم به من خفى البهجة فى كنف حب المرأة، فما قربت المنزل إلا وملأت صدرى روائع النعيم، فما أروح ما يتردد فى ظلال الزواج من أنفاس لها عبير ما أحلاه! وما أطيب التنفس فى حياضه بالغ مداه » (مدلتون)

طالما أتيح لى أن أشاهد بطولة المرأة وثباتها فى تلقى ضربات القدر معجباً باحتمالها الضراء بعد السراء، حتى ليخيل المرء أن المحن التى تفل عزيمة الرجل وتصدع أركان نفسه تستنهض المرأة وتستثير قواها، وتبعث فيها من البسالة والسمو ما يبلغ الذروة فى بعض الأحيان. وليس أوقع فى النفس من رؤية امرأة رقيقة ناعمة كانت أيام اليسر والنعيم عنوان الضعف وقلة الحول، وإذا بها تسمو بادرا كما لجأة فتصير سند الرجل ومفرج كربته أيام بؤسه وخلال محنته، وليس أروع من رؤيتها تصمد لعواطف البؤس الجائحة رابطة الجأش ثابتة الجنان.

تلتف الكرمة بأوراقها النضيرة حول السنديانة مستعينة بها على بلوغ شعاع الشمس فتظل معتمدة عليها وتلك موكلة بها، حتى إذا ما نزلت بالسنديانة صاعقة فرقتها حنت الكرمة عليها بمساليجها الرقيقة المطوف تضم بها أغصانها الممزقة وأنسجتها المشققة، كذلك حال المرأة تعول على الرجل وتكل أمرها إليه، فلا تعدو أن تكون زينة بيته وحلية أنسه، فإذا ما انقضت عليه البأساء بضربة من ضرباتها الهوج شاء لطف الله فى قضائه أن يجعل منها موئله وعزاءه فترعى نفسه المضطربة بحنانها، وتحتمل برفق رأسه الثقل، وترأب بعطفها وحدبها صدره المصدوع.

كنت ذات يوم أهنئ صديقاً تجمعت حوله أسرة موفورة الصحة جمة النشاط جمعت بين أفرادها أقوى أواصر المحبة، فقال لى متحمساً: « ما أستطيع أن أتمنى لك نصيباً فى الحياة خيراً من أن تكون لك زوج وبنون يقاسمونك فى يسرك السراء، ويكونون فى عسرك عزاءك وعونك على الضراء »

وهذا حق، فقد رأيت المتزوج الذى يتردى فى مهاوى البؤس أقرب نهوضاً من سقطته وأقدر على استعادة مكانته من الأعزب الوحيد. ويرجع بعض الفضل فى ذلك إلى أن لدى المتزوج دافعاً أقوى على العمل هو حرصه على القيام بمطالب أعزائه ضعيفى الحيلة الذين يعتمدون عليه فى سد حاجاتهم وحفظ حياتهم، إلا أن الفضل الأكبر فى ذلك يرجع إلى أن ما يلقى المتزوج فى داره من عطف ومودة يخفف من همه ويزيل من حزنه، ويجدد نشاطه ويذكى ملكاته؛ هذا إلى أنه لا يفقد الثقة بنفسه ولا يهون لديه قدره حين يرى أنه برغم ما يحيط به من سواد وبرغم ما يصادف خارج داره من هوان ما برح يتربع فى بيته عرش مملكة صغيرة من المحبة والوداد. بيد أن الأعزب يكون فى بؤسه

عرضة لأن يهمل شأنه ويتلف نفسه ، إذ يخيل اليه أنه وحيد متروك ، سيحل بقلبه من البوار مثل ما يحل بالدار المهجورة حين يموزها النزيل المأمول

تعيد إلى فكرى تلك الخواطر ذكرى قصة من قصص الحياة الزوجية شهدتها بنفسى ، فقد تزوج صديق ليسلى من فتاة جميلة مهذبة شبت وسط الحياة الجديدة وشغفت بأغاطها الطريفة وأزيائها المستحدثة . لم تكن ذات ثراء ، إلا أن زوجها كان فى بسطة من العيش ؛ وكان يروقه أن يتيح لها التنعمى بمجاراة كل طريف والتحلى بكل ما يضفى على المرأة غلالة السحر والفتنة من جميل الزى ، ونفيس الحلى . وكان يقول : « إن حياتها ستكون قصة من قصص عبقر »

كان خيالياً يميل إلى الجد والرصانة فى حين كانت هى مرحة طروبا ، فكان لامتزاجهما ائتلاف شجى النغم عذب الألحان . ولطالما شهدت عن كثب ذلك الهيام الصامت الذى كانت تفيض به نظراته إليها ، وهما يجلسان بين الرفاق . وكنت أرى نظراته تلك تبعث فى نفسها البهجة والسرور كما كنت أراها تتجه ببصرها إليه وسط التهليل والاعجاب ، وكأنما لا تبحث عن مبتغاها من الاستحسان والقبول إلا عنده . ولقد كانت حين تتكئ على ذراعه يلوح جمال قوامها الانثوى رائعاً فى تباينه مع طول قامته وبادى رجولته ؛ وكان يبدو الاستسلام ويتدفق الحب فى نظراتها إليه مما كان يبعث فيه الزهو بها والحدب عليها ، وكأنه ما شغف بهذا الحمل الوديع إلا لضعفه وقلة حوله . وهكذا مضيا فى طريق هذا الزواج المبكر والاختيار الموفق إلى حياة زوجية تحفها الورود والرياحين ماكثين فيها من أزمة النعيم ومقومات السعادة ، واحتمالات الهناء ما لم يتح لغيرهما من الأزواج

وشاء القدر أن يغامر صديقى بما له فى « مضاربات » واسعة النطاق . فلم يمض على زواجه كثير حتى فاجأته المآسى تترى فعصفت بماله . وفى لحظة وجد نفسه قد انحدر الى هوة الفاقة ، فظل وقتاً ما يخفى فى نفسه حقيقة ما آل إليه أمره وقد شحب وجهه ، وتحطم قلبه ، وأصبحت حياته كرباً دائماً لا يريم . ومما زاد فى كربه وجعله عسير الاحتمال على نفسه اضطراره أن يتكلف الابتسام والهشاشة أمام زوجه ، إذ أنه لم يكن يقوى على ازعاجها بالافضاء إليها بحلية أمره ، وحقيقة خطبه . بيد أنها على رغم ذلك رأت بعين الحب التى لا تغفل أنه لم يكن على ما تحب . فلاحظت نظراته الحائرة وزفراته العميقة ولم تخدعها محاولاته الفاشلة فى الظهور بمظهر السرور ، وحاولت جهد ما ملكت من روح مرح أن ترفه عنه ، فأحاطته بكل ما وسعها من رفيق العناية ، ورقيق الملاطفة ، عساها تفلح فى رد السرور الى نفسه وإعادة الغبطة الى قلبه ، فأخفق مسعاها ولم تفلح إلا فى دفع السهم مدى جديداً فى صميم فؤاده . فكلما رآها أحق بأن يزيدها حبا ، زادت نفسه كرباً ، وأمضه التفكير فيما سيجلبه إليها من الشقاء والحرمان عما قريب . ودار بخلده أنه لن يمضى إلا القليل حتى يفارق الهناء شغتيها ويبارح الوميض عينيها ، ويرزح قلبها الخافق بين جنبيها ، مثل قلبه ، تحت عبء هموم الحياة وأرزائها

وأخيراً جاء فى ذات يوم وروى لى حقيقة حاله وكل ما انتهى إليه أمره بلهجة من أعمق اللهجات يأساً ، وأشدها بؤسا . فلما وقفت منه على جلية حاله سألته : « أو تعرف زوجك ذلك كله ؟ » فصاح بى وقد خنقته العبرات : « بالله ألا ترحمنى فتشفق على ، ولا تذكر شيئا عن زوجى ، فان التفكير فيها هو الذى يكاد يفقدنى صوابى »

فقلت له : « ولم الكتمان ؟ ولا مناص من

أن تعرف جلية الأمر عاجلاً أو آجلاً فإن عاقبة كتمانه عنها طويلاً ، وعندما تظهر لها الحقيقة يوماً ما سوف يكون الخبر أشد وقعاً على نفسها ، وأكثر إيلاماً لها مما لو كاشفتها به ، فإن لهجة الحبيب تخفف وقع الخبر الشديد ؛ هذا إلى أنك تحرم نفسك بهذا الكتمان راحة عطفها فضلاً عن أنك بتصرفك هذا تخاطر بالرباط الذي يؤلف بين القلوب ، ألا وهو تبادل الفكر حراً ، وبث الشعور صريحاً . ولا بد من أن تكتشف عاجلاً أن أمراً يقلق بالك ويكربك ، وليس على الأسرار في النفس مما يرضي الحبيب ، فتشعر عندئذ أنك تبخسها حقها وتنتقص قدرها ، ويسوءها أن ترى أحزانك أنت يامن تحب قد أخفيت عنها »

« أوه ! ولكن ألا تتصور يا صديقي أثر تلك الضربة التي سأطيح بها كل آمالها وأمانيها ؟ ألا ترى أني سأهوي بقلبها إلى الثرى حين أخبرها أن زوجها قد أصبح فقيراً ، وأن عليها أن تطرح عنها مطارف الحياة وزينتها ، وتترك مباهج المجتمعات وفتنتها . وتنزوي معي في عالم الفقر المدقع والظلام المطبق ! كيف أخبرها أنني قد هبطت بها من ذلك الجو الذي تحلق فيه ، والذي كان في وسعها لولا ما حل بي أن تظل محلقة فيه في اشراق دائم نوراً لكل عين ، وبهجة لكل قلب ، كيف تحتمل الفاقة والمتربة ، وقد شبت في أعطاف اليسر ؟ كيف تحتمل الازدراء والاهمال وقد كانت معبود المنتديات ؟ أواه إن ذلك سيحطم قلبها . إن ذلك سيحطم قلبها

رأيته باكياً في جزعه فتركته يتدفق في حديثه فالحديث يسري عن نفس المحزون ، ويفرج كربة المكروب . فلما هدأت ثورته ، ورأيته ارتد الى هدوئه واستسلم للكآبة عدت الى حديثي في رفق ولين وأخذت أحثه على المبادرة بالافضاء الى زوجه بذات نفسه وحقيقة أمره فأومأ بالقبول ؛ بيد أنه كان جد محزون

« كيف تكتم الأمر عنها في حين أن الواجب أن تعلم به لتستطيع أن تمد المدة لهذا التغير الذي طرأ على معيشتك ، إذ من الواجب عليك أن تغير نظام حياتك ؟ فعلت وجهه سحابة من الغم لم تخف علي فاسترسلت أقول : « كلا لا تجعل لذلك سبيلاً الى قلبك ، ولا تر فيه مدعاة لايلام نفسك ، فإني واثق أنك لم تجعل سعادتك في يوم من الأيام رهينة المظهر الخارجي . ولا زال لك أصدقاء حميمون لا ينقصك في نظرهم أن يقل رونق دارك . ثم إني واثق أنك لست بحاجة الى قصر منيف حتى تسعد مع ماري »

فصاح مضطرباً متأثراً : « اني لأستطيع أن أسعد معها في كوخ وأن أنحدر معها الى الفاقة وأهوي الى الحضيض ، أستطيع ، أستطيع باركها الله ، باركها الله » صاح بذلك وقد غمره سيل من الأسى والشجن

فقلت له وقد تقدمت إليه وأمسكت يده بحرارة : « صدقني يا أخي وثق أنها سوف تكون كما كانت وخيراً مما كانت . ولسوف يكون من دواعي فخارها ودليلاً على انتصارها وسبباً في استثارة كامن قواها واستجاشة مدخر عواطفها أن تبرهن فرحة طروباً على أنها إذ أحبتك أحبتك لذاتك ، فإن في قلب كل امرأة قبساً من نار علوية يظل كامناً ما أشرق نور أيام السراء فما ينتشر ضياؤه إلا ساعة يخيم ظلام الخطوب . وما يدري الرجل حقيقة زوجه وأنها راحة صدره والملاك الكريم الذي يحوم حوله حتى يسلك بها غمار الحياة وتصهرها المحن »

لقد كان في صدق تعبيري وبلاغة لهجتي ودقة تصويري ما أثر فكره الثائر وهدأ خاطره المروع ؛ وكنت أعرف من أحاول اقناعه ، فتابعت الضرب على الوتر الذي أشجاه وانتهيت باقناعه بالذهاب الى بيته والافضاء الى زوجه بما أحزنه وناء به قلبه

ولابد لى من أن أعترف بانى على رغم كل ما قلت كنت قلقا غير مطمئن الى النتيجة ، إذ من يستطيع أن يعتمد على جلد من عاشت كل حياتها بين اللهو والسرور ؟ أليس من المحتمل أن تتمرد تلك النفس الطروب عند ما ترى ذلك المنحدر المظلم الذى شقه البؤس فجأة أمامها ؟ أو ليس من المحتمل أن تظل روحها الرحة متعلقة بالآفاق المشرقة الخلابة التى ظلت حتى الساعة تسعد بها ؟ وما آمر الضيق بعد السعة لمن أحبوا مستحدث الأزياء وطريف الملاهى ، فان الفاقة لتجلب لهم من الآلام المبرحة ما لا يحسه غيرهم من الناس . ومجمل القول انى لم أستطع أن ألقى صديقى فى الغد إلا وأنا مشفق مضطرب وكان قد أفضى إليها بدخيلة نفسه وحقيقة خطبه

« وكيف تلقت الخبر ؟ »

« كالملاك ، حتى لكأنما كانت فيه راحة فكرها ، فطوقت عنقى بذراعها وسألتنى : أهذا كل ما أحزنك طيلة هذه الفترة الأخيرة ؟ » ثم أضاف الى ذلك قوله « إلا ان الفتاة المسكينة لا تستطيع أن تتبين ما لابد لنا من ملاقاته من تبدل حال بحال . انها لا تعرف الفقر الا تصورا مما قرأت عنه فى شعر الشعراء ، لا يوجد إلا محاطا بالحب مقرونا بالهوى ، انها لم تشعر بعد بانا فقدنا شيئا ما إذ لم تعان بعدُ الحرمان مما ألفت من المناعم والمطارف ، ولكن التجربة الحقيقية ستكون عندما تصطدم بالوقائع وتعانى وضيع المشاغل وتافه الحاجات ورقة الحال وسوء المآل »

فقلت له : « أما وقد انتهيت من مكاشفتها وتلك هى المهمة الشاقة فانك ستجد عما قريب سراً خفياً يبدل أمامك الحياة فتراها تسير بك من حال الى حال أهنأ وأسعد . نعم إن الكشف عن الخبر المشئوم قد يؤلم إلا أنه ألم ساعة يزول ، وأما حرصك على الكتمان فهو الكرب الذى لا ينتهى والذى تصلى ناره كل حين توجسا من كشف المستور . وليست متاعب الفقر شيئاً الى جانب متاعب الادعاء الكاذب وتكاليف الكبرياء والتطلع للجيب الخاوى . إن محاولة المحافظة على المظهر الفارغ هى التى يجب أن تضع لها حداً ؛ فكن شجاعاً فى قبول مظهر الفقر فانك بذلك تجرد الفاقة من سلاحها البتار وعذابها الأليم » فوجدت من ليسلى تمام الاستعداد لقبول هذه الفكرة إذ لم يكن فيه ميل للادعاء الكاذب أوحب المظهر الفارغ ، أما زوجه فحسبنا ما أظهرت من ميل للسير وفق مقتضيات ما آل إليه حاله

جاءنى ذات مساء بعد ذلك بأيام ، وبعد أن تخلى عن منزله واتخذ لنفسه كوخاً صغيراً فى القرية على مسافة أميال من المدينة ، وكان قد شغل طيلة يومه فى إعداد أثاثه ، وما كانت تلك الدار الجديدة لتتطلب من الأدوات إلا القليل البسيط ، وكان قد باع الأثاث الفاخر أثاث منزله السابق إلا أنه أبقى قيثار زوجه وقال : انه احتفظ به لأنه قريب الصلة بها متصل بأقصوصة هواهما ، وانه يذكره ببضعة لحظات من أحلى لحظات هيامهما ، حين كان يميل الى القيثار ويستمع الى صوتها الشجى الحنون . فما وسعنى إلا الابتسام لما ينطوى عليه هذا الزوج المتيم من فروسية ووفاء . لقد كان ذاهباً إلى الكوخ حيث ترك زوجه تقوم باعداده ، ولما كنت مشوقاً إلى تتبع قصة هذه الأسرة وكان المساء جميلاً فقد اقترحت أن أصحبه . ولقد كان متعباً لما بذل فى يومه من جهد فسار وقد انتابته نوبة من التفكير الحزين . وأخيراً صعّد من بين شفتيه زفرة عميقة وقال : « مسكينة ماري ! » فقلت له : « ومادهاها ؟ هل أصابها شيء ؟ »

فقال لى ، وقد ألقى إلى بنظرة ملول : « كثير عليها أن تنحدر إلى هذا المكان الوضيع ، وأن تحبس فى هذا الكوخ الشنيع ، وأن تضطر إلى معاناة

مشقة العمل فى هذا المسكن التعس »

« هل تألمت من هذا الانقلاب ؟ »

« تألمت ! كلا ، لم تبارحها عذوبة روحها وصفاء نفسها حتى ليبدو عليها أنها أكثر مرحاً وسروراً مما كانت عليه فى أى وقت آخر . ولقد كانت كلها حباً ، وكلها عذوبة ورقة ؛ فكانت راحة قلبى وبهجة نفسى » فقلت متعجباً : « يا لها من فتاة تستحق الاعجاب ! أو تدعى أنك فقير ياصديقى وأنت لم تكن أكثر غنى منك اليوم ، إذ لم تنكشف لك قبل اليوم جوانب تلك العظمة التى لاحد لها والتى أنعم الله عليك بها فى شخص هذه المرأة »

« أوه ! ولكنى لا أستطيع أن أستريح ياصديقى حتى يمر بسلام أثر اللقاء الأول لهذا الكوخ ؛ فهذه أول مرة تصطدم فيها بالواقع وتجرب فيها الحقيقة المرة ، واليوم فقط تلج مسكننا وضيعاً تكد فيه طيلة يومها فى إعداد حقير لوازمه ؛ واليوم فقط تذوق متاعب الأعمال المنزلية ؛ واليوم فقط ترى نفسها وقد حرمت الطارف ، وفقدت المتع ، وفارقها النعيم ، وذهبت عنها الراحة ، ولعلها تجلس الساعة متعبة كئيبة تفكر فى أمر ذلك الفقر المقبل الذى ستصلى ناره وتلقى أذاه » ، ولقد كان فيما قاله شيئاً من الصدق وكثيراً من الاحتمال لم أستطع أن أمارى فيه ، فسرنا صامتين

انثنينا من الطريق العام إلى منعطف ضيق ألقت عليه أشجار الغاب ظلاً كثيفاً أوضح عزلة ذلك المكان ، وقد ظهر النزل قبالتنا تبدو بساطته خليقة باعجاب أشد الشعراء شغفاً بالريف وإيثاراً للبساطة ، وإلى جانب تلك البساطة تجلى جمال المنظر الريفى ، إذ امتدت على جانب من الكوخ كرمة برية غمرته بكثيف من ناضر الأوراق كما ألقت عليه الأشجار الشجراء فينان الأغصان ورشيق الأفنان ، وقد ظهر حول الباب وفى مدخله المخضوضر عديد من أوانى الزهر نسقت تنسيقاً فيه سلامة الذوق ، وانفرج الباب الخارجى الصغير عن ممر شق بين الأعشاب يؤدى إلى الباب الداخلى فما كدنا نبلغه حتى سمعنا نغماً موسيقياً ؛ فأمسك ليسلى بيدى فوقفنا نستمع إذ كان الصوت صوت مارى تغنى فى بساطة رائعة مقطوعة من المقطوعات التى يحبها

شعرت بيد ليسلى تضطرب فى ذراعى ووجدته يتقدم ليستطيع أن يستمع بوضوح ؛ فكان لوقع أقدامه صوت على الممر المرصوف ؛ فأطل من النافذة وجه مشرق جميل ما لبث أن اختفى وسمعنا خطوات رفيقة ، وأقبلت مارى للقيانا مرتدية ثوباً ريفياً جميلاً أبيض اللون ، وقد وضعت فى طيات شعرها الجميل بضع زهرات برية ، وقد علت النضارة والرواء وجهها وتوردت وجنتاها وأشرق بالابتسام محياها ، فما رأيتها قط أكثر منها انتعاشاً مما بدت عليه فى تلك اللحظة ، فهتفت : « عزيزى جورج ، كم أنا مسرورة بقدومك ! فلقد طال انتظارى إياك ، ولقد كررت إلى المنعطف أبحث عنك . لقد أعددت المائدة تحت دوحة جميلة خلف الكوخ ، وجمعت لك بعضاً من أطيب ثمار الفرولا التى تحبها ، ولدينا إلى جانب ذلك قشدة ممتازة . إن كل ما هنا عذب وهادئ »

ثم وضعت يدها فى يده ونظرت إليه منشرحة وقالت : « أوه ! ستكون سعيدين كل السعادة »

فغلب ليسلى على أمره ، وضمها إلى صدره وطوقها بذراعه وقبلها ثم قبلها ولم يستطع الكلام ، وغلبته الدموع فملأت عينيه . ولطالما أكد لى أنه برغم ما أصابه بعد ذلك من نمو وبرغم ما انتهى إليه من خير وسعادة ، فانه لم يشعر قط بأعذب ولا أسعد من تلك اللحظة التى غمره فيها من الغبطة والسعادة ما لا سبيل إلى وصفه ولا حد لجماله . حسين محمد كامل